الجامعة

الجزء ٨ السنة السادسة

مجلةٌ اجتماعيةٌ علميةٌ تهذيبيةٌ تاريخيةٌ

تصدر في نيو يورك

ولنشر للشرق مدنية الغرب وللغرب مدنية الشرق

نيويورك — ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٠٨ — شعبان سنة ١٣٢٦

خطبة وقصيدة

لصاحب الجامعة في أثناء رحلته

الخطبة لدى شلالٍ * والقصيدة على جبلٍ

الخطبة كتبها امام شلال نياغرا المشهور المرسوم في الصفحة التي تقابل هذه الصفحة والقصيدة ابتدأ في نظمها على جبل مونت توم في هولو يوك «ماس» وأتمّها على خرير شلالات نياغرا

١

الخطبة لدى شلاّل نياغرا

„ سلامٌ ايها الشلاّل · حدثني لاحدثك فقد جئتك من مكان بعيد

„ لقد جئتك من البلاد الشرقية البعيدة التي سمعتَ بك وانت لم تسمع بها ·

ولقد قرأتُ عنك فيها في صباي ما ادهشني فلما وطئت قدماي بلادك العظيمة هذه كانت زيارتك احدى اماني نفسي . ولما بلغتُ مساء أمس بلدتك المسماة باسمك وسمعتُ في الفندق صوتك يملأ الفضاء لم استطع الرقاد مع ان الليل كان في منتصفه . وكان صوتك مع كونه شبيهاً بصوت أمٍ يهمهم في اذني طفلها لتنيمه يهيج اعصابي في فراشي ويمنعها من السبات بدل ان يسكّنها . وخُيّل لي مراراً انه يدعوني اليك وان لا أؤجل زيارتك ومصافحتك الى الغد . فنهضتُ الى ملابسي فلبستها وانحدرت في ظلام الليل الى الحديقة التي على شاطئك بين حبال الأنوار الكهربائية التي زيّنوا بها الطريق اليك زينةً تتجدد كل يوم بجمال وسلامة ذوق كأنهم يحتفلون بك احتفالاً ابدياً . ولما صرت على شاطئك في الحديقة بين اصوات قبلات العشاق في الخمائل ولفتات بنات اميركا ليرين هل يرى احد تلك القبلات المسروقة من وجناتهنّ هبطتُ الى مائك بسرور ولذة لا مزيد عليهما كأنني هابط الى ماء أعظم من ماء الاردن وغمست فيك كفي اصافحك قائلاً : سلامٌ يا صاحب الماء

,, اي نعم سلامٌ وألف سلام . لقد جئتُ اسألك سرّك العظيم . انا تعبتُ ولم اتجاوز ثلث قرن وانت لم تتعب وقد تجاوزتَ مئات قرون . فما السرّ في ذلك ايها الشلاّل ؟

,, ولم يكن تعبي من الحياة وحياتك . فقد كنتُ تعباً منها من قبل حين كنتُ في زمن الشباب . اعني شباب الروح لا شباب الإهاب . اما الآن وقد بدأتُ افهمها (عفواً ولا تبتسم ان كنتَ تستطيع الابتسام) فقد اصبحتُ احبها كحب الانسان لشيءٍ لا مفرّ له منه فان حضر تمتّع به وان غاب لم يسأل عنه .... — وانما تعبتُ لانني اركض وراء شيءٍ وهو يركض امامي

,, فلعلّ هذا سبب تعبي بعد ثلث قرن وعدم تعبك انت مع انك ابن

مئات قرون

,, انت لا تركض وراء شيء ولا تطمع في شيء · مياهك تجري من حيث لا تدري الى حيث لا تدري مندفعةً بقوة الصواعق واصوات الرعود وهي لا تبالي بمصيرها ولا بما يصيبها أو تصيبه في طريقها · فلا غرضَ لك ولا غاية · واما انا فمع ان لا غرض لي ولا غاية اريد بالرغم من الطبيعة امتنا جميعاً ايجاد غرض لي وغاية ·· وهذا هو التعب العظيم · فهل انا طالبٌ مستحيل ؟ أم غايتي لا تُدرك الا بعد عناء طويل ؟

,, صعدتُ الجبال اطلبها · وهبطت الاودية اخطبها · واستوقفتُ في الاحراش نسيم المساء اسأله عنها · وناجيتُ أجرام السماء وسكان المدن والقرى استخبرهم خبرها · فوجدتهم جميعاً لا يعلمون · والآلهة الذين يعلمون ذهبوا فلا يعودون

,, انتَ عاصرتَهم منذ الوف من السنين · فاخبرني هل أسرّوا اليك خبرًا · وهل تعلم شيئًا مما سيجري ومما جرى

,, لما كان كهنة المصريين يحيطون هياكلهم بالاسرار و يسجدون فيها للأبقار · وموسى يقود شعبه في التيه · واسكندر يفتح المشرق والمغرب · و يسوع يحمل على مبادئ الكهنة المادية حملته المشهورة التي كوتهم في جباههم بنارٍ ابدية · ومحمد يدعو الى السيف أو القرآن · و بوذه وكونفوشيوش و برهما يجتذبون اليهم أكثر من ثلثي بني الانسان · ونابوليون يقتحم اوروبا التي اتحدت عليه ليدوسها بسنابك خيله · والعلم والفلسفة بين كونت وقنت وسبينوزا وشوبنهور وهجل وسبنسر ونييتش وروسو وديكارت وفولتير و باكون. وداروِن — يضطربان · ورنان يبتسم لاقوال الجميع ابتسامته اليسوعيّة المشهورة و يقول بلغته البديعة ,, لكل مسألةٍ وجهان '' — لما كان كل ذلك ايها الشلاّل كنتَ تجرى كما تجري الآن ومعاصرًا لهؤلاء الاعاظم من بني الانسان · فقل لي هل بلغك ان أحدهم

وجد تلك الغاية المنشودة واليتيمة المفقودة ؟ وهل أسرّ أحد منهم اليك شيئاً من تلك الاسرار الهائلة التي لا يبوح بها. الانسان لاحد غير نفسه ؟ حدّثني لاحدثك يا جدّ الارض وشيخها الاعظم . وقلْ لي ما علمتَ لاقول لك ما أعلم

„ ولكن مهلاً ولا تصغِ اليّ فليس ما أعلم بذي شأن وتكلم انت اولاً فللجبابرة حق التقدّم على الاقزام . اف ما احقر الانسان واصغره لديك وما اقبحه لدى جمالك . لقد جلستُ بجانبك ساعة انظر الى نفسي والى مياهك الفضية فهممتُ ان أُلقي بنفسي فيك لأكون جزءاً منك . لاصقاً بك الى الابد لا انفصل عنك . ولكن انّى لي ذلك . — تكلم أولاً يا شيخنا الناطق الصامت . فما لديّ شيء تافه ساقط

„ وماذا عسى ان يقول لك ابن ثلث قرن يا ابن مئات قرون ؟ وماذا تستفيد من مُعاصر الصغار يا مُعاصرَ الكبار ؟ اسمع ايها الشيخ . أتعطيني كل ما في صخورك من الجماد الذي لا يحسّ وتصوغ لي منها أجمد نفس ؟ اذا تمكّنتَ من ذلك قلتُ لك قولاً هائلاً يستحق ان يُصغى اليه .. والاّ فلا تسلني الا ما أقدر عليه .

„ ليس هذا بجبنٍ ايها الشيخ الشجاع ولكنه كراهة للالم وخوف من الانفصال عن العالم . انك انت تقدر ان تعيش في فراشك الرحب الجميل وحيداً فريداً كاله ٍ جليل . وما فتئت الآلهة تعيش وحدها . ولكنّ بني الانسان اجتماعيون طبعاً وتطبّعاً . ثم هل انت تقدر على الخروج من مجراك وارتقاء الآكام التي حولك ؟ فكيف يقدر رجل مثلي على الخروج عن طريقه المألوفة لصعود جبل أصعب وأشد خطراً من آكامك

„ أتذكر ايها الشلال يوم كان شاطئاك مرتعاً لاولئك الهنود المساكين قبل

ان يصل اليك البيض ويغتصبوا ارضهم هذه ظلماً وعدواناً . لا ريب في انك تذكره لانك كنتَ فيه معبودهم . فاولئك البشر السذج المساكين الذين كانوا يصطادون التمساح من مياهك وهم عراة الابدان تكسو الرياش رؤوسهم وتحمل ايديهم الفؤوس والحراب و يعيشون بالغزو والسطو في قفر يباب كانوا أسعد حالاً وأنعم بالاً من هؤلاء البيض الوافدين على شاطئيك من جميع أقطار الدنيا وقد ملأوهما بالمدن العامرة والمنازل الفاخرة والحدائق الزاهرة والمركبات الكهربائية والسفن البخارية وراحوا يتبخترون بينها تبختر الطاووس بثياب جميلة وشعور صقيلة . وصدِّقني ايها الشيخ ان اولئك كانوا أسلم طبعاً وأبعد عن الخبث من هؤلاء

,, قد غيَّروا ارضك ومَن عليها ايها الشيخ . وهم يظنون انهم حسَّنوها وحسَّنوك وجمَّلوها وجمَّلوك . وما جمالهم الا كجمال المرأة الدميمة : زخرف خارجي وطلاء سطحي . حكَّ هذا الطلاء قليلاً فتجد تحته جيفة منتنة . اظنني غير مخطىء ولا مسيء اليك ايها الشيخ اذا قلتُ لك انك كنتَ أجمل منك اليوم حين كان شاطئاك ملجئاً للمتوحشين ومعتركاً للأسود والنمورة ومسبحاً للذئاب والتماسيح ومرقصاً للدببة والقردة . فقد كان يومئذ جمالك وحشياً طبيعياً يقشعرُّ له جلد التصوُّر و يرتدُّ عنه طرف الخيال مذعوراً . لقد كان يومئذ جمالك جمالاً حقيقياً . اما اليوم فقد أسروك كما تؤسر الاسود في الاقفاص وتُجعل (فرجةً) للناس . فأصبح شاطئاك مرتعاً لذئاب ونمورة ودببة وقردة من جنس جديد لها طباع تلك ولكنها تمشي على قائمتين لا على أربع . ان روحاً مادية هائلة هبَّت على العالمين فضعضعت المبادىء وزعزعت الشرائع وسحقت الاديان والآداب وساقت الناس بعصا الحاجة الحديدية الى مبادىء هائلة جعلتهم ذئاباً هائلة . فان الامم الآن تتعادى وتتسلح تأهباً لاقتتال أفظع من اقتتال

الذئاب . والشعوب يأكل في داخلها كبيرها صغيرها وقويها ضعيفها كما تفعل اسماكك . فركفلر يملك من المال الف مليون بينما ملايين من البشر يستعطون الخبز الآن ولا يجدون . وهو يستخدمهم باجور تافهة لزيادة ثروته الملطخة بدمائهم وعرقهم وهم يسكتون و يعملون لانهم مضطرون . والسلطة في الارض ضعفت وكادت تنحل . فان الناس اسقطوا العروش والملوك ولكنهم اقاموا مكانها ملوكاً لكل واحد منهم ملايين من الرؤوس (١) فقويت بذلك سلطة المشعوذين والدجالين والجهلاء الناصحين الذين يتملّقون الشعوب ويضلّونهم كما كان أخصّاء الملوك يتملّقونهم ويضلّونهم . والافراد يتخاصمون و يتعادون و يفترسون بعضهم بعضاً بايديهم وألسنتهم وأقلامهم تنازعاً على (الرزق والسيادة) وقُبِّح هذا الرزق وهذه السيادة اذا كان لا يُبلغ اليهما الا بالرجوع الى وحشية وهمجيّة أشد من الوحشية والهمجية الاولى . فاذا كان كل هذا هكذا ايها الشلال فأين الارتقاء الذي يزعمونه ؟ وما فائدتك في استبدال ذئابك القديمة بهذه الذئاب الجديدة التي لها طباع تلك ؟ وما هذا القبح الذي يدعونه جمالاً ؟ من أجل هذا صرخ حكيم مشهور (٢) قائلاً „ يا وحوش البرّ وافاعي الغابات خذيني اليكِ آكل من طعامك وأشرب من مائك فان صحبتك أهون على الانسان من صحبة الانسان "

„ كل متحمس لمبدإ أو فكر أو فضيلة أو فضل يُعدّ الآن بين تلك الذئاب الجديدة ساذجاً مخدوعاً لاننا اصبحنا ولا فضل غير الفضة ولا مذهب غير الذهب ولا كمال غير الريال . ويا للأمر المدهش . فان المتحمسين القادرين المخلصين للمبدإ والفكر يُضطرون الى كتمان حماستهم وفكرهم وإخلاصهم لئلا يُرموا بتلك التهمة وطلاب المنفعة المادية الجهلاء العاجزون المراؤون ينادون على السطوح بالمبدإ

---

(١) سلطة الشعب (٢) لابرويير في كتابه « الاخلاق »

والفكر والاخلاص ويمدّونها كشرك للاقتناص . البوم يصرخ ايها الشيخ والبلبل يسكت . والناس لا يفرقون بين صوت البلبل وصوت البوم ... بل مبادئ الناس الواطئة اكثر موافقة لصوت البوم منها لصوت البلبل . الناس لاهون بمعدهم وخزائنهم واانانيتهم فلا تحدثهم عن شيء آخر . لا تذكر لهم الحياة العالية العقلية والادبية . ولا تستنزل لهم من الملأ الاعلى همس الآلهة والملائكة . ولا تترجم لهم اصوات الطبيعة وعواطف النفس الجميلة . فان كل هذه لا تهمهم ولا تحرك اوتار قلوبهم لانها اصبحت لاتتحرك الا عن طريق (المعدة والخزانة والانانية) . ان الشراهة والجهالة والكبرياء قد اتحدت عليهم وطوّقت نفوسهم باسلاك من فولاذ لتربطها بتراب الارض منعاً لها من الارتفاع الى الآفاق العليا التي تعيش فيها النفوس العليا . فاخبرني ايها الشيخ الخبير مَن مِن الفريقين هم الضالّون المخدوعون ? ومَن يكون المنتصرون الفائزون ? افدني لاستفيد وافيد . وأمزق ذلك القناع بيد من حديد

,, انني ايها الشيخ من امة صغيرة هجر كثيرون منها بلادهم الى بلادك طلباً للرزق والارتقاء . وقد بدأ كثير من تلك المبادئ الهائلة يتسرب اليهم في بلادهم قبل هجرتهم الى بلادك وزاد تسربها اليهم بعد هجرتهم زيادة هائلة . فقد كانوا يعيشون منذ ٥٠ سنة مع سائر الامم الشرقية بسذاجة ودعة وتضامن وطمأنينة واحترام للنظام الاجتماعي بين الناس كما يعيش الطفل في سرير امه . ولما دخلت اليهم مبادئ قومك وبلادك تغيرت حالهم ونفوسهم كما تغيرت احوال جميع الامم الشرقية ونفوسها بعد دخول مبادئ قومك اليها . فافدني ايها الشيخ ما سألتك اياه لابلغه اليهم فنعلم جميعاً هل نحن على هدىً أم ضلال وما هو الغث والسمين في تلك المبادئ . وثق انني لا اخشى في هذا البلاغ لومة لائم وان كان مما تضطرب له الشيوخ في القبور والاطفال في التمائم . ولا

تحشَ التثقيل عليّ ايها الشيخ فان حرفتي البلاغ ووظيفتي النشر . ومن سوء طالعي انني اتخذتُ هذه الحرفة سبيلاً لي في الحياة في بلادنا ولغتنا

,, عفواً ايها الشيخ ولا تلمني لقولي (من سوء الطالع) فانني ما اردتُ ما ما ظننتُ . ان طيور السماء تكتفي بقطرة ندى وحبة قمح ونحن طيور الخيال نكتفي بما تكتفي به طيور السماء . وهذه الطيور تعيش بسلامة جسماً وروحاً في اصغر بقعة جدباء كما تعيش في الرياض الفيحاء وتغرد بانغام سماوية في تلك كما تغرّد في هذه . فما اردتُ بكلامي الكسب المادي ايها الشيخ وانما أردتُ الكسب الادبي . ان صناعتنا شقيّة في بلادنا ولغتنا . ومن (طلبها لِذّاتها) حُرم لَذّاتها وجميع اللذات . فهو يضطر في سبيلها الى مسالمة الفساد . والاغضاء عن أهل الاوهام والخرافات والاستعباد . ومعاداة الاصدقاء ومصادقة الاعداء . والخلط بين الكرام والغوغاء . وتسمية الانحطاط ارتقاء . ورؤية الجهل سائداً والسكوتُ عنه . والحق ضائعاً والابتعاد منه . واذا جاشت في النفس تلك النار التي توقدها الآلهة في بعض النفوس واضرمت الغضب المقدس في الصدور والرؤوس وحركت اليد لاستنزال صواعق الفكر على الطروس — سكّن العقل الجاف البارد تلك الصواعق قبل وقوعها بالابتسام وعدم المبالاة . وقال للنفس الغضبى (اياكِ والسذاجة والغرور) وأنشدها ذلك القول المشهور : ,, مكانك تُحمدي او تستريحي " فتصبح النفس وفيها ما في مياهك . بعضها في المرتفع ثائر هائل كثورة شلالاتك غالٍ غليان امواجك يطلب السدود والحواجز والعقبات لكنسها بقوته كنساً فلا تجترئ الجبابرة ولا الآلهة على الدنو منه . وبعضها في السفح على الشاطئ هادئ ساكن كأنه ماء في بركة تلعب بجانبه الاطفال وهو بها غير مُبال . وبين ذاك الهياج وهذا السكون قوة الآلهة ايها الشيخ وآلام المنون

,, انت قوي وتستطيع الثبات على هذا السكون والهياج معاً · وانما مزيتك العظمى وقوتك الكبرى ثباتك هذا · فثبتنا في ثباتٍ كثباتك · انك ايها الشيخ لو انقطعتَ عن الجريان منذ عام أو مئةٍ او الف لكان نياغرا الآن في خبر كان ولضحك منك الامازون والميسيبي بل النيل والدجلة ضحكاً ملأ السهول والوديان · فيا لهذا الثبات العجيب مدة الوف من السنين · كل شيء في الحياة حولنا نحن معاشر البشر يتغيَّر ويتغبَّر · اصدقاؤنا يخونون · واحبابنا يسلون · واجدادنا وآباؤنا وابناؤنا يذهبون · واعداؤنا يعادوننا بسبب وبلا سبب ولا يعودون · وامم تنقرض وامم تقوم · والاسافل يستعلون · والاعالي يسفلون · والسلاطين على العروش يرتعدون · وكل شيء في الارض يتزعزع ويتضعضع حيناً بعد حين حتى المبادئ التي خلناها ازلية ابدية بل حتى الارض التي نمشي عليها يوم تزلزل زلزالها وتخرج أثقالها · نعم كل شيء يتغير الاك · فبارك الله في عظمة ثباتك وحيّاك وبيّاك

,, يا روح نياغرا والاهة مياهه : بعيني قد ابصرتك · وبعد هذا اليوم اصبحت اعتقد ان لكِ نفساً كنفسي · ولستُ اعني بهذا مسألة الخلود فانتِ خالدة كما دلَّ على ذلك تاريخك · وقد استدللتُ عليكِ حين صافحتُ ماءكِ بغمس يدي فيه وتجلّى لي بين رشاشه المتطاير كالغبار امامي قوس قزح بديع · يا لذة الحياة العقلية الكبرى حين رأيت قوس قزحك هذا كأن نفسك تنتصب ضمنه للترحيب برجل جاءك تعباً ملولاً متألم الضمير ولا يعزيه في الدنيا لذة او جمال غير جمالك وجمال امثالك · انني بعد ان رأيتُ هذا القوس وسمعتُ على الأثر هديرك الهائل كأنه طبول بعيدة تُضرب ووقع في اذني تغريد العصافير في أشجارك ورأيتُ الازهار تتمايل على شاطئيك وحولها الفراش يطير ويقع وماؤك بينها كلها مسرع تحت الجسر الى حيث لا أعلم ولا هو يعلم — خُيّل لي برهةً لغروري

ودهشتي ان روحك حيّة حاضرة في هذا الاحتفال الطبيعي العظيم وقد اقامته استقبالاً لي ورداً لتحيتي واستعداداً لاجابة طلبتي . ولكنني لما رأيتُ في اشجارك السنجاب يصيح وهو ساكن على الغصن ينظر اليّ وصوته شبيه بصوت الضاحك ضحكاً مستتراً . والغراب على الشجر البعيد ينعب نعيباً شبيهاً بانين الثكلى وبكاء الباكي جهراً . وقفتُ حائراً امامك استنطقهما واستنطقك إذ خُيّل لي ان ذلك الضحك والبكاء انما هما ضحكٌ من حجّي اليك اطلب سراً وغاية حيث لا سرّ ولا غاية وبكاءٌ على آمال الصبى الذهبية والاماني السماوية التي خلتها ابدية واذا بها كالسراب جميل في العين ولكن لا أثر له ولا عَين . وبين الأمل في روحك المتجلية في قوس قزحك واليأس لضحك سنجابك وبكاء غرابك اطرقت على الجسر امامك ولبثتُ صامتاً ولم يبقَ حينئذ في نفسي لذة ولا ألم . ولا يأس ولا أمل . اذ هي كادت تصبح جماداً كجمادك

„ اي نعم ايها الشيخ الذي ما عضّه ناب الحرموان كان قد طال عليه القدم ستبقى على مرور الزمان (حجاً) لبني الانسان كما كنتَ حتى الآن . فسيأتيك جمهورهم من بعدي كما جاؤوا قبلي ما دامت الارض أرضاً والسماء سماء . ومنهم العاشق عشقاً شرعياً يتساقى هو وعروسه في شهر العسل في الفنادق المشرفة عليك كؤوس سعادة وقتية . ومنهم العاشق السارق يجعل ظلال اشجارك على شاطئيك في ظلام الليل مخبئاً لسرقاته . ومنهم سياحٌ لا صناعة لهم غير السياحة بل لا صناعة لهم ولا عمل أصلاً لانهم من أهل الترف والكسل والبطالة يقصدونك لقتل أوقاتهم لان غيرهم يتعب ويعمل لهم ولا يفهمون منك غير جريان مياهك . ومنهم جمهور متوسطي العقول الذين سمعوا بانك جميل عظيم فاختلسوا فرصة من اوقاتهم وساروا اليك مع السائرين والتهوا

بالملاهي الصبيانية التافهة عن جلالك وجمالك . ومنهم الحزين أو المنكوب أو التَعِب من الحياة أو جريح القلب جرحاً ابدياً بكارثة من كوارث الدهر الغادر والزمان القاهر يجيء اليك وهو يجرّ ذيول آلامه التماساً للقوة في ظلالك وطلباً لتبريد نفسه المتقدة بشيء من رشاش مائك . ومنهم (وهم المتأخرون المقدّمون) جمهور أهل الفكر يزورونك كزيارة الكاهن الهيكل ويقفون عندك يستنطقون آثارك ويستجلون أسرارك ويسألونك أخبارك ويذكرون ويتذكّرون . وانتَ يا أيها الشيخ الجائر بتردّ (هؤلاء) الى بلادهم جامدين صامتين منقبضين لانك لا تفتح لهم خبايا أسرارك واما جميع (اولئك) فتردّهم فرحين نشيطين معجبين . فلا تحالف الزمان على خياره وخيارك

„لقد طفتُ في ربوعك وحادثتك وسألتك فلم تجب وها انا عائد عنك . فوداعاً ايها الشيخ . تذكّر في المستقبل رجلاً جاءك من أقصى الشرق وأجال في ضفتيك مزيجاً غريباً من روح الشرق والغرب ممزوجاً في نفسه وأفكاراً قد تستأهل الاهمال وعدم المبالاة ولكنها لا تستأهل الضحك والهزء . واذا هزأتَ بها فاهزأ فقد هزأتَ قبلها بالدهر وضحكتَ من الزمان . ولكن قبل ان تهزأ تذكّر انها نتيجة تأثير قومك وأجداد قومك . فنحن تلامذتكم في الصغائر كما نحن تلامذتكم في الكبائر . صدقني ايها الشيخ . غيّر مجراك واذهب الى بلادي . فهناك تجري خاملاً مجهولاً لا يعكّر ماءك ذئاب قديمة او ذئاب جديدة . ولا يستأسرك الناس ليجملوك (فرجة) والعوبة بل تعيش على هواك معيشة الخمول والسلامة بعيداً عن الناس . هناك تسمع حفيف أشجار الارز وتهبّ عليك ريح الاهرام وينبت زنبق البرّ على شاطئيك . واذا مرّ بك اتفاقاً بعض الناس مروا باحتشام . ولا تسلني ايها الشيخُ لماذا اتيتُ منها الى بلادك اذا كان هذا حال بلادي فللتقادير أحكام“

٢

القصيدة على الجبل

﴿ الشعر على الطريقة العلمية ﴾

بين نيتش وتولستوي
في وسط امجاد الولايات المتحدة

ُعجْ بالجبال ولا تعجْ بالوادي ان شئتَ رواية هذه الامجادِ
واركب لها ُقطُر البخار فقد مضي عصر النياق وصوت ذاك الحادي
العيس بادت والطلول عفت وما ُيلفى لها من نادبٍ أو هاد
واطلب اليها (١) ان تطيرولا تقل مهلاً فانك سائر (بفؤادي) (٢)
الوقتُ مالٌ والزمان زمان ركضٍ لا زمان تخنّثٍ ورقادِ
وتلاعب في (الرقمتين) و(حوملٍ) (والسقط) أوفي الندب والتعدادِ (٣)
الوقت وقتُ إرادةٍ صماء تصرع كل معترضٍ سبيل جهادِ
هذا كلام نيتش ان نيتش كان مقوّم المعوجّ والمنئادِ
في زعم بعض الناس اما مذهبي فيه فأبقيه الى ميعادِ

٭•٭•٭

ولقد صعدتُ الى الجبال أري الورى واقيس حالهمُ بحال بلادي
فبدت ليَ (الارض الجديدة) (٤) مثلما تبدو المدينةُ من ذرى المنطادِ
وتمثّلت لي بين اتلانتيكها ذاك العجاج وبين ذاك ,,الهادي‘‘(٥)

---

(١) الى قطر البخار (٢) هو من شطر مشهور للفارض يستهل فيه الابل والحادي لانها سائرة بحبيبه (٣) الرقمتان وحومل والسقط اماكن في بلادالعرب مشهورة في اشعارهم (٤) الارض الجديدة اميركا و بالاخص الولايات المتحدة (٥) الهادي هو الاوقيانوس الباسفيكي وترجمته بالعربية الهادي

كعوالمٍ من غير دنيانا بدتْ — تزري ببابل أو بذات عمادِ (١)
شعبٌ عظيمٌ هائلٌ متفرّقٌ — في واسع الاغوار والانجادِ
مدنٌ كما انتثرت نجوم القبة — الزرقاء أو كالرمل في التعدادِ
والله لا ادري أأسهل ان أعدّ — بلاد هذا الشعب عدّ مدادِ
أم ان اعدّ شعوبه (٢) — وكلاهما — صعبٌ وفيه حيرة المرتادِ
في الشرق بيروتٌ وقاهرة ولكن — كم هنا تلقى (٣) من الأنداد
في الشرق لبنانٌ وحيدٌ انما — كم ههنا من شامخ الاطوادِ
في الشرق أرض قُدّستْ بنبوّةٍ — ظهرت بها قدماً وغاب الهادي
وهنا أراضٍ قُدستْ بالاهة الـ — حرية القصوى وهديٌ بادِ
هذي شرائعنا الجديدة فانظروا — آثارها يا معشر الزهادِ
شرع جديد (٤) لستُ أزعم انه — أبهى وأجمل من شرائع عاد (٥)
لكنني لا استطيع اذا رأيتُ — جميله في البر والاسعاد
ونظامَ عيش الناس فوق سهولة الـ — كسب الجزيل وأمن كل مُعاد
ووداد اقوام يؤالف بعضهم — بعضاً بلا ضغنٍ ولا أحقادِ
أن أُنكر الشمس الجليّة في الضحى — واقول خير الشرع شرع الفادي (٦)
أوشرع ذاك المرسَل (٧) الغازي الذي — ملأ الورى قسطاً وحسنَ ايادِ
أو شرع ذاك الصالح (٨) المقطوع في — حرش يسائلُ ربه وينادي
مات (القديم) فكفّنوه فما له — ما بيننا من رجعةٍ ومَعاد
الارض تحتاج (الارادة والعزيمة والنشا — ط) وليس وهمَ الدين والإرشاد (٩)

---

(١) هي ارم ذات العماد المشهورة في التقاليد الاسلامية التاريخية (٢) في الولايات المتحدة اجتمعت جميع شعوب الدنيا من اكبرها الى اصغرها (٣) اي هي تلقى (٤) مقابلة بين الشرائع المدنية الجديدة والشرائع الدينية القديمة (٥) اي الشرائع الدينية القديمة كقدم ثمود وعاد (٦) المسيح (٧) محمد (٨) بوذه (٩) كل ما يلي مقتبسٌ من فلسفة نيتشه حرفاً ومعنى لخصناه لبسط المذهبين. وناقل الكفر ليس بكافر

فبها ارتقت هذي البلاد وانها مرقاةُ كل تمدنٍ وبلاد
هذا كلام نيتش ان نيتش كانَ مقوّم المعوجّ والمنئاد
في زعم بعض الناس اما مذهبي فيه فابقيه الى ميعاد

*****

ذا الشرع (قال نيتش) حلّ عزائم الابناء والآباء والاجداد
رفقٌ مساواةٌ اخاءٌ رحمةٌ حب الورى حتى العدوّ العادي
هذي شرائع ضد كل غريزةٍ حيويةٍ ومبادئ استعباد
شقيتْ بها الامم التي اتّبعت مبا دئها وذا أثر الشقاوة باد
فبها تصير الارض مستشفى رحيبـ ـاً والورى في ظلمةٍ وسواد
اذ يُصبحون وكلهم اما مريضٌ او ممرّضُ ذي ضنىً وسهاد
فكأنها كانت لجمهور الانام كقاتلٍ يُفنيه او جلّاد

بينا ترى القلب السليم ملازماً تعليمها بسذاجةٍ وعناد
يستضعف الطبع القويّ لجعله لسمومها في غاية استعداد
متجافياً عن كل ما يؤذي الانام وسالكاً فيهم سبيل رشاد
حتى يبيتَ (وكان من اقوى الرجال) كأنه ولدٌ من الاولاد
تجد الغليظ النفس من قد حادَ عن تعليم ذاك الشرع كل حيادِ
مستبقياً في نفسه قواتها مشحوذةً لتنازعٍ وجهادِ
ولذاك ينعم في الحياة ويسبق الاقران في الميدان سبق جياد
قد اصبحتْ نفسي تعاف شرائعاً تُشقي وتُفني نفس كل جوادِ
وبضدها يعتز كل صغير نفسٍ أو عديم الحسّ مثل جماد
وبها يتاجر (ذاك) من لبس السواد كما باحقر سلعة أو زاد
يا ليتَ في نفسي قوىً كقوى الهـ ـكي أُبيد شرائع العُبّاد
من يعبدون وانما معبودهم اهواؤهم لا واحد الآحاد

و بذي العبادة يُهلكون قوى النف   وس ويُضعفون غرائز الاجساد
هذي جهنّمُ في الحقيقة لا التي   ذُكرتْ بانجيلٍ وبالاوراد (١)

اما المساواة التي تدعونها   فضلاً وخيراً فهي شرٌ فساد
كيف السواءُ أتحسبون الناس قد   صُنعوا كصنع جدائد الحدّاد
في قالب صُبّوا فكان جميعهم   متماثلاً كمبارد البرّاد
ان المساواة التي تبغونها   ظلمٌ لكل فتىً رفيع عماد
فبها تُذلُّ قوى الاولى امتازوا ومن   هم يُرتجى خيرٌ ونفعُ عباد
وبها يُساوي بين أعظم من مشى   فوق التراب وأحقر الاوغاد
يا ضحكةَ العقل السليم وهزءُ أهل   الفهمِ من ذا الجهلِ والافساد

من ثم قلتم ان (حبّ الذات)   شرٌ مستطيرٌ هادم الامجاد
مع ان هذا الحبّ أصلُ رقيّ كل   جماعةٍ ونشاطها الافرادي
ان قيل يوماً قد ذوى في امةٍ   وكذاك في فردٍ من الافراد
ما فيهما من (اثرةٍ) فقل السلام   عليهما فالويلُ بالمرصاد
هذا كلام نيتش ان نيتش كان   مقوّم المعوّج والمنئاد
في زعم بعض الناس أما مذهبي   فيه فابقيه الى ميعاد

****

حملَ الهواءُ اليّ صوت نيتش هذا   وارداً من صوب ذاك الوادي
من فلقٍ فيه جعلتُ حقيبتي   ولسان ذا الاستاذ فيها شادِ
اذ في الحقيبة سفره المشهور ,, بابتـ   ـدأ الظلام '' (٢) وكل سطر مداد
فيه يصيح كضرغمٍ مستأسرٍ   يُرغي ويُزبد ايما ازباد (٣)

---

(١) الاوراد آيات القرآن (٢) هو كتابه « ابتدأ الظلام عند الاصنام »
(٣) كتابة نيتش مشهورة بكونها غاية في الحماسة والحدة والشدّة لان موضوعها تنازع مبادئه ومبادىء من تقدموه

فطردتُ صوت نيتش عن سمعي لا أمتعَ ناظريَّ ومسمعي وفؤادي
بجمالِ ما حولي من الآثار من صنع الطبيعة أو صنيع أياد (١)
واذا بصوتٍ هائلٍ يدوي كما تدوي الرعود قواصفاً وينادي

ــ أنيتشُ مهلاً لي اليك رسالةٌ ضاقت بها نفسي وضاع رشادي
فذُعرتُ ثم بحثتُ اطلب صاحب الـ صوت الرهيب فلم أجد من باد
الا كتاباً كنتُ قد اودعته في جانبي في الحرش كالمعتاد
عنوان هذا السفر (بعثٌ) (٢) وهو من تأليف ,, ُتلستوي '' العظيم الهادي

••*

فرأيتُ في ذا السفر كل صحيفةٍ تهتزُّ من شيءٍ كجنح حمامِ
والريح ساكنةٌ فخرت بأمره وحسبتُني في عالم الاحلام
ما كنتُ ادري ان روح عزيزنا ُتلستوي قد حلّت به قدامي
ولذاك تضطرب الصحائف مثلما اضطرب السياح بسالف الايام
لما بدا فيه لموسى ربّه في شكل نارٍ غير ذات ضرام (٣)
فعلمتُ ان الصوت صوت حكيمنا ُتلستوي فارتعدت جميع عظامي

يا فرحةَ الدنيا وسعدَ فتىً رأى رأيَ العيان أكابر الاعلام
وتموّجت في نفسه اصواتهم كتموّج النسمات والانغام

افدي بأيام الزمان جميعها ساعاتِ يوم كان فيه امامي
علامة الالمان والعلامة الروسيّ في هذا الجدال السامي

---

(١) ان الشركة التي تدعو الى زيارة هذا الجبل في اعلاناتها ومطبوعاتها تقول انه ممتاز بالجمال «الطبيعي والصناعي» (٢) هو كتاب «البعث» المشهور (٣) اشارة الى ما جاء في التوراة عن ظهور الله لموسى في العليقة بشكل نار لا تحرق

لا برلمانات الورى في الغرب ... واليونان والرومان والاعجام
لا عصر ميرابو وذيموستين او ... جوريس او غمبتة ذي الالهام
كلا ولا فردوس ملتن والجحيم ... جحيم دنتي صاحب الاحلام
حتى ولا فوق السماء وتحتها ... مما دنا أو شاسع متراِم
يوماً دوى فيها جدال هائل ... كجدال ذا الضرغام للضرغام

مستقبل الانسان والدنيا جميعاً ... كان في هذا الجدالِ الحامي

ـ أنيتش (قال الفيلسوف) قد استمعـ ... ـتُ غريبَ قولك فاستمع لكلامي
أتظن ما قد قلته علماً جديداً ... لا وحق العلم والعلاّم
شيء قديم ما ذكرتَ لو انتبهـ ... ـتَ ولم تكن بالمبصر المتعامي
اذهب الى الغابات حيث الناس ... ما زالوا كمثل سوائم الانعام
فهناك تلقى الناس يتّبعون شرع ... نيتش طبق اصوله بتمام
لا شرع عندهم سوى ما آلفوا ... من قوةٍ وحشيّةٍ وخصام
فقويهم يا ليت عين نيتش تنظـ ... ـر دوسه فوق اللهى والهام
بنشاط ذئبٍ فارسٍ وعزيمة الاسـ ... ـدِ الهصور وحدّةِ الصمصام
وضعيفهم يعنو بذلٍ للقويِّ ... وان تمرّد ديس بالاقدام
ألمثل هذا يا نيتش تريد إرجـ ... ـاع الورى في عصرنا البسّام
مرّت قرونٌ والنوابغ يتعبـ ... ـون لجذبنا من ذا البلاء الطامي
وتريد انت الآن هدم بنائهم ... مهلاً نبيَّ اواخرِ الايام
تعليمك الممقوت يدفع للورا ... عمران هذا الارض لا لامام
ثمّ انبرى تُلستوي يشرح ضدّ ذا ... التعليم شرح معلمٍ علاّم
تعليمَ أديان الورى ومبادئ الحـ ... ـبِّ الجميل وكل فكر سام
وعماده الانجيل والتوراة والقرآن ... والفيدا بعذب كلامِ

واذا أردتُ بيان كل مقاله طال القصيد كطول شهر صيام

••*

لما شفى ُتلستوي غلَّ فؤاده من خصمه والشمسُ في الآصال
سكن الكتاب لان روح حكيمنا قد فارقته للفضاء العالي
لم أدرِ هل صارت الى ما فوق أم عادت لجسم الفيلسوف البالي
جسمٌ كأجسام الشيوخ وانما فيه جمال سذاجة الاطفال

••*

ساد السكون هنيهة لكنما من بعدها هبت رياح شمال
حملت اليَّ من الجبال وشاسع الآكام والوديان والادغال
اصوات طير الجو والاحياء طراً تستغيث بربها المتعالي
لم تستفد غير (التحيّر) منهما (١) فجميعها أمسى ,,أبا مرقال'' (٢)
ونفوسها ذابت أسىً يا ليتها ظلّت كما كانت من الجهّال ...

••*

ثم انحدرتُ لفندقي من قمة الجبل الرفيع لكي أشدَّ رحالي
وحلفتُ اني بعد هذا اليوم لستُ بمرتقٍ جبلاً من الاجبال
فالمكثُ في ظلمات وادٍ باردٍ خيرٌ لمن يهوى فراغ البال ...
وذكرتُ حينئذ مقالة شاعرٍ ,, السيلُ حربٌ للمكان العالي''(٣)

فرح انطون

---

(١) أي من كلام نييتش وكلام تولستوي (٢) اشارة الى البيت المشهور
فاضاع مشيته واخطأ مشيها ولذاك سموه أبا مرقال
(٣) هو شطر بيت مشهور لعله لابي تمام او البحتري. ولما أُنشده قائله وقف ممدوحه اجلالاً لهذا البيت. ولا تخفى بلاغته كما لا تخفى مناسبته لهذا المقام

الناس اربعة

من هم قادة العالم

وذوو النفوذ

كيف تجعل الناس يتهيبونك

الناس لك اربعة

رجل تتهيبه حين تستقبله وتظل تتهيبه بعدئذٍ

ورجل لا تتهيبه وقد تستضعفه حين تستقبله ولكن لا تلبث بعد عشرة قصيرة ان تستقويه وربما تضطر ان تتهيبه

ورجل تتهيبه حين تستقبله ولكن بعد عشرة قصيرة او طويلة تزول هيبته من نفسك وربما حملته على ان يتهيبك

ورجل تستضعفه مذ تستقبله وتحمله على ان يتهيبك دائماً

الطبقة الاولى

قادة الامم

اما الاول الذي تتهيبه أولاً وآخراً فهو العظيم النفس والجسد معاً. وعظمة نفسه مقرونة بالذكاء الطبيعي وقوة الجنان . وعظمة جسده مقرونة بالملامح الحادّة — أي ان اخلاقه جليّة في عينيه وسحنته

ويمتاز هذا الموهوب بقوة ارادته وتنبه وتيقظه وحدّة ذهنه . ويكثر عناده في الامور ولا تندر إصالة رأيه وحكمته . فكأنّ القوة والفهم مجتمعان فيه. فاذا لم تكن مساوياً له فيهما سطا عليك من اول وهلة واستضعفك واضطررت ان تتهيبه

هذا الصنف من الناس اسبق الاصناف الاربعة الى قيادة الهيئة الاجتماعية واستلام مقاليد الامور واكثرها نفوذاً وسؤدداً . و يغلب ان يكون ذووه مديري

الاعمال المسيطرين وندر من يستسلم منهم لسيطرة حتى ولو كان مرؤوساً

وهم لا يبتغون المال لاجل المال بل لكي يستخدموه للنفوذ والاستقواء · وربما كانوا اكثر استقامة من سواهم لاعتمادهم على قوتهم · على انهم قلما يرثون للضعيف وان فعلوا فلسياسة غالباً لا دائماً .

ولا ريب انهم هم العنصر الاهم في الاجتماع الانساني وربما كان رقيه متوقفاً عليهم حتى اذا كثروا فيه كان اسرع رقياً

وهؤلاء هم الذين نقول ان السعد خادمهم اذ نرى ان الامور موفقة لهم · والحقيقة اننا لا نشعر بان نفوذهم يقود الامور حسب رغبتهم · لانهم بما لهم من الهيبة يسطون على العناصر الاخرى العاملة في الاجتماع و يجعلونها كآلات في ايديهم · فتلك العناصر تعمل معاً لمصلحتهم · فهي بحسب الظاهر تعمل متباينة والحقيقة ان صاحب النفوذ يفتكر ويريد والعناصر العاملة تنفذ ارادته لا ارادتها فتتفق طبعاً ولهذا نرى الامور موفقة لهم

الامير بشير الشهابي ونابوليون

من الامثلة على هذا الصنف من الانام الامير بشير الشهابي فقد كان عظيم الهيبة جداً حتى ان خبره كان يلقي الرعب في كل لبنان · ويروى عنه انه لما استُقدم كأسير الى الاستانة ودخل على مجاس الوزراء وقفوا له في الحال وبعد ذلك خجلوا من انفسهم لوقوفهم لاسير لهم واتفقوا على ألا يرتكبوا هذه الغلطة بعد · ولكن لما دخل عليهم ثانيةً لم يشعروا الا وهم يقفون اجلالاً له

ومن هذا الصنف ايضاً نابوليون الاول ولكن كانت عظمة نفسه اغلب على عظمة جسده خلافاً للامير بشير ولهذا كانت له هيبة ومكانة في نفوس جيشه لم تكن لسواه فكان جنوده يطيعونه الطاعة العمياء كأنه هو ارادتهم وهم اعضاء جسمه التي تنفذ تلك الارادة

ويُحكى عنه انه لما عاد من جزيرة ألبا التي كان قد نفى نفسه اليها كان كلما دخل الى بلدة فيها في فرنسا ينضم اليه جيشها مع ان الحزب الملكي يكون قد اقام الجيش لكي يرد نابوليون على اعقابه · ولما وصل الى غرينوبل استقبله نحو ٦ آلاف جندي ولم يكن معه حينئذ الا القليل من الجنود فاستوقف جنوده بعيداً وتقدم وحده الى ان قرب من جيش غرينوبل العامد الى مقاتلته · ثم ترجل عن جواده وتقدم الى تلك الصفوف وكان قائدها قد أمرها بتصويب بنادقها واطلاقها على نابوليون بحيث انها لو أُطلقت عليه لبذرته في الهواء هباءً منثوراً · على ان نابوليون ثبتُ الجنان فلم يهب · فبقي متقدماً حتى تصوبت البنادق اليه فقال بصوته الجهوري „ انا نابوليون قائدكم · فهل تقتلون قائدكم؟ "

وكان القائد عند ذلك قد أمر باطلاق البنادق فبدل ان يطلقها الجنود نكسوها الاّ بندقية واحدة بقيت مصوبة اليه · وكأنّ الجنود صمّوا آذانهم عن اوامر قائدهم وفتحوها لصوت نابوليون · ثم تقدم نابوليون الى البندقية التي بقيت مصوبة نحوه وقال لجنديّها : „ أتقتل قائدك؟ " فاجاب الجندي : „ انها يا مولاي فارغة " وسلمها اليه لكي يتحقق قوله

ولا ريب ان المستر روزفلت والامبراطور غليوم وامثالهما يعدون من هذا الصنف من البشر متفاوتين في الهيبة والنفوذ والفاعلية

الطبقة الثانية

من ذوي النفوذ

اما الثاني الذي لا تتهيبه بل قد تستضعفه حين تستقبله ولكن لا تلبث بعد عشرة قصيرة ان تستقويه ولا يبعد ان تضطر ان تتهيبه — فهو العظيم النفس دون الجسد وعظامة نفسه مقرونة بالذكاء الطبيعي وقوة الجنان ولكن ليس في ملامحه ما يدل على تلك العظمة بجلاء وقلّ ان تشعر بحدّة في عينيه

وهو كالاول من حيث قوة الارادة والتنبه والتيقظ وحدة الذهن والعناد

في الامور وإصالة الرأي والا فلا ينسني له ان يصبح ذا سطوة وهيبة وسيطرة

وانما يختلف عن الاول غالباً بالدهاء واستعمال الحيلة لانه يعتمد على قوة عقله اكثر من قوة فراسته • وقد لا يقل عن الاول في قوة جنانه وجرأته

ويغلب ان يكون اصحاب الدسائس والمكايد من هذا الصنف • واكثر اهل السياسة ومديري دفة الاحكام ومديري الاعمال الكبرى من متاجر وشركات الخ انما هم من هذا الصنف من البشر

هؤلاء هم الذين كلما عرفناهم ازددنا تهيباً لهم لاننا نشعر بقوة ارادتهم واصالة رأيهم ورسوخ كلمتهم وثباتهم على مبادئهم وجهادهم في تنفيذ مآربهم

قد يمكن ان يكون منهم ابو الهدى الصيادي الرفاعي الذي كان صاحب النفوذ الاول في المابين الهمايوني • وربما كان بسمرك من هذا الصنف ايضاً • وكثيرون من اصحابنا المحنكين يعدون منه ايضاً • وهذا الصنف اكثر عدداً من الصنف الاول

الطبقة الثالثة

النافذون بالتهويل

اما الثالث الذي تهيبه حين تستقبله ولكن بعد عشرة قصيرة أو طويلة تزول هيبته من نفسك وربما حملته على ان يتهيبك — فهو الذي تنحصر قوته في ملامحه ومظاهره الخارجية واما دماغه وجنانه فصغيران • هو الذي يغشك مظهره ويفضحه مخبره

روي ان رجلاً كهذا زار يوماً كبيراً من كبراء لبنان في أحد الاعياد • وكان عامة الناس يتوافدون على الكبير ويمثلون بين يديه ليهنئوه • فكان الذين لا يعرفون ذلك الذات العظيم ينحنون امام زائره الذي تقدمت الاشارة اليه لظنهم انه هو السري الامثل صاحب الدار لما رأوه من مهابته وعلاء طلعته حتى اذا عرفوا انه من طبقتهم خجلوا من انفسهم • وكان الذات يتميز غيظاً من

جرآء ذلك حتى انه اوعز اخيراً الى ذلك الرجل الأ يزوره وهو في ثوبه الانيق تحايداً لمثل هذا الغلط الفظيع

وكثيرون من اهل هذا الصنف من البشر الذين يغشك مظهرهم اذا كان عندهم قليل من الجرأة والاقدام والحزم استطاعوا التمويه والتهويل وظلوا في عيون المحيطين بهم من السذّج نافذين معظمين ومتسيدين مع ان رؤوسهم فارغة وقلوبهم ضعيفة

ويكثر في هذه الطبقة المغرورون الذين لا يدرون بغرورهم ولا يعرفون اقدار انفسهم فيتبعون غرورهم ويهوّلون على بسطاء الناس فيجوز تهويلهم · ولا يندر ان يكونوا من ذوي الدعاوي الفارغة ولكن مظاهرهم تؤيد دعاويهم في نظر الساذجين فينخدعون بهم

كثيراً ما نرى من هؤلاء المدعين وهم ليسوا في العير ولا النفير ولا يملكون من رأس مال المعرفة شروى نقير ولكنهم يوهون على عامة الشعب ويتسيدون عليهم ويغنمون من ثمار اعمالهم مجاناً بلا استحقاق

الطبقة الرابعة

المنقادون

اما الناس الذين تستضعفهم منذ تستقبلهم وتحملهم على ان يتهيبوك دائماً فهم معظم العامة المنقادين الذين يكونون آلات في ايدي ذوي النفوذ والجاه · وهم الذين تعرب جلياً ملامحهم ومظاهرهم عن صغر نفوسهم وادمغتهم وارادتهم · ويكادون يكونون عديمي الرأي ولا ثقة لهم بانفسهم وينتظرون من يتسيطر عليهم ولا يكادون يحسنون عملاً بلا مدرّب يدربهم

التهيب نسبي

هذا بيان اجمالي لطبقات الناس بنسبة بعضهم الى بعض من حيث التهيب على ان الافراد يتنازعون النفوذ والهيبة واقواهم جناناً أسبقهم الى الفوز والتسيد والنفوذ· ولكن قد يكون لمعرفة هذه الحقائق شأن في الفوز وسطوة الواحد على

الآخر · فاذا اجتمع اثنان من طبقة واحدة من الطبقات السابق وصفها فاسبقهما الى التأثير والسطوة والاعتصام بهيبته الشخصية يتغلب على الآخر ويضطره الى تهيبه

وهذه هي سياسة بعض الناس ولا سيما الذين ليس لهم رأس مال كافٍ من الفهم الحقيقي في التغلب على غيرهم فانهم يبذلون جهدهم منذ اول مقابلة ان يوءثروا على الذين يجتمعون بهم تارةً بالتشامخ واخرى بالانفة وحيناً بالدعوى والايهام بالجاه وطوراً بالقحة والجسارة الى غير ذلك مما يصورهم في عين محاضرهم شيئاً عظيماً · ولكن لا يندر ان تنكشف حقيقة جوهرهم بعد حين فتنحط مكانتهم

واذ قد عرفت كل ذلك يسهل عليك ان تفهم كيف تسلك مع الناس · فلا تستسلم لهم ولا تحكم على مركزهم ومقدار نفوذهم قبل ان تعرف جوهرهم ولا تهول عليهم وتموه على عيونهم اكثر مما يحق لك لئلا يحطوا من مقامك متى عرفوا جوهرك · فاجتهد ان تعرف قدر نفسك وقدر غيرك معاً · واعطِ نفسك حقها وغيرك حقه

نقولا الحداد

استلفات نظر

نحن الآن في الثلث الاخير من السنة فاذا كنت ايها المشتركُ الكريم لم تدفع قيمة اشتراكك بعد فحتى متى تتأخر وانت تعلم ان الادارة تدفع كل نفقاتها سلفاً فحسبك ان تمهلك اشهراً بقيمة الاشتراك الزهيدة · فنرجو من جميع المشتركين الكرام غير الدافعين في الولايات المتحدة وكندا والبرازيل والارجنتين وسائر البلاد الاميركية وفي مصر وسوريا على الخصوص ان يتفضلوا بارسال بدلات اشتراكاتهم على الفور ولهم الفضل

وهنا نحث حضرات الوكلاء الافاضل الغيورين ان يبذلوا جهدهم بجمع الاشتراكات ولهم الشكر سلفاً

اصلاح تركيا

تاريخه وماهيته وتأثيره

وروح ابطاله

الالسنة تلهج بالدستور الجديدوالافكار حائمة حوله واهوية المجالس العمومية والخصوصية تتموّج باللغط فيه فلا يليق بمجلة الجامعة ان تقع بين ايدي قرائها وهي خالية من الابحاث اللازمة بهذا الموضوع وأهمها تاريخ الاصلاح في تركيا وماهيته والمراد منه سابقاً وحاضراً وتأثيره والله المستعان

نبذة أُولى

فذلكة تاريخية في القرن الماضي من حكم محمود حتى بدء حكم السلطان عبد العزيز

هلّ هلال القرن الماضي على الدولة والملك في قبضة السلطان سليم الثالث المصلح فانه تولى السلطنة ١٨ عاماً بدأها بمتابعة الحرب التي كان السلطان عبد الحميد الاول قد اوقد نارها مع الدولتين الروسية والنمسوية وختمها باعلان الاصلاح العسكري العثماني الذي دعاه المؤرخون بالنظام الجديد وأدى الى استياء اجواق الانكشارية منه وخلعه في شهر مايو (ايار) عام ١٨٠٧ . وقد قام بين هذين التاريخين باعمال جليلة بالرغم من المصاعب والقلاقل التي احاقت بالبلاد في عهده كثورة محمد علي باشا والي يانيا وطوالع ثورة اليونان . وخلفه السلطان مصطفى ولكنه لم يتربع في سرير السلطنة غير اشهر قليلة فخلفه السلطان محمود الثاني الذي نظم الجيش وفتك باجواق الانكشارية وكان اول سلطان نادى بالتنظيم والعدل والمساواة بين جميع الرعايا العثمانيين على اختلاف

ملهم ونخلهم · وفي ٢٨ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٠٨ دعا مصطفى باشا البرقدار وزيره وأمره ان يدعو الكبرآء والاعيان لمفاوضتهم في شؤون الاصلاحات التي قرر ادخالها الى السلطنة · فيري القارئ مما تقدم ان تاريخ الاصلاح في تركيا يبتدئ منذ قرن كامل · وبعد السلطان محمود الثاني بقي الاصلاح كامناً في صدر الامة حتى عهد عبد المجيدفقاومته روسيا ثم ظهر لعهد السلاطين الثلاثة عبد العزيز ومراد وجلالة عبد الحميد اذ قام بعض الغيورين مثل مدحت باشا وبثوا ما في صدر الامة من امنية الاصلاح

وفي ١٦ يونيو (حزيران) سنة ١٨٢٦ اصدر السلطان محمود الخط الهمايونيُ القاضي بتنظيم الجيش كما تنظم الجيوش الاوروبية · الا انه لم يكن أسعد حالاً واكبر نصيباً من سلفه السلطان سليم الثالث فقد أصلى حربين مع الدولةالروسية فشلت الدولة فيهما · الاولى في عام ١٨١٠ وقد انتهت في شهر مايو (ايار) سنة ١٨١٢ والثانية سنة ١٨٢٨ وقد انتهت في سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٢٩ واضطر السلطان محمود في خلال هذه السنوات ان يقاتل الصربيين واليونانيين وجنود محمد علي باشا والي مصر فعجل ذلك بموته فتوفي بعد واقعة نزيب التي انكسرت فيها قوات حافظ باشا · وخلفه نجله الاكبر السلطان عبد المجيد وهو في السابعة عشرة من عمره · وكانت المسألة المصرية أعظم شاغل للدول فاصدر فرمان سنة ١٨٤٢ الذي كان ختام ادوارها

ولما فرغ من مشاغله الداخلية التفت الى ما كان قد بدأهُ ابوهُ من قبله فأيده وأعلن سنة ١٨٣٩ فرمان الاصلاح المعروف بفرمان ,, كل خانه '' ثم ناط بمصطفى رشيد باشا المصلح العثماني المشهور تحقيق ذلك الاصلاح الذي ساء الحكومة الروسية فاقترحت على انكلترا منذ عام ١٨٨٤ اقتسام تركيا وكانت الدولة الانكليزية تتصام عن ذلك · فكانت روسيا تزداد استياء بقدر ازدياد الاصلاح انتشاراً في بلاد الدولة وظلت تدس الدسائس الى ان اصلت نار الحرب بينها وبين الدولة العلية سنة ١٨٥٤ ولم تكن تعتقد ان انكلترا وفرنسا تنتصران

للدولة عليها

ولما انتهت تلك الحرب بفشلها اعلن السلطان عبد المجيد الخط الهمايوني الثاني في ١٨ فبراير (شباط) من عام ١٨٥٦ قبيل موتمر باريس ساوى فيه بين جميع الرعايا العثمانيين وصرح بقبولهم جميعاً في الجندية العثمانية بلا اختلاف ولا تفريق غير ان بعض رجال حزب التأخر حالوا دون انفاذ هذا الخط الهمايوني . وقد توفي سنة ١٨٦١ فخلفه اخوه السلطان عبد العزيز

٢ — عبد العزيز ومراد

بدأ عبد العزيز حكمه بقمع ثورة الجبل الاسود والصرب وكانت مدة حكمه ١٥ سنة قضاها منغمساً في شهواته وملذاته وكان مغروراً ومتعظماً ومحباً لنفسه ومسرفاً ولم يهتم قط بمصلحة الامة والدولة فكان سلوكه سلوك حاكم في عصر الجهالة ولكن المدنية الاوروبية لا تمهله حتى يأذن لها بالدخول الى بلاده في حين انها كانت تتدفق على الشرق فاستطرقت الى تركيا في طريقها. وبينما كان السلطان مضجعاً في سرير ترفه كان نبهاء الشعب متيقظين وقد ساعدهم تراخيه على التمرس على حب الحرية والتمدن الجديد ولا سيما لانهم كانوا يدرسون الآداب الغربية وكان لهم المجال رحيباً لان حرية المطبوعات والجرائد لم تكن مخنوقة . فانشئت لذلك العهد جريدتا „ مخبر“ و„ حريت“ وكانتا تبثان روح الاصلاح في الامة ونشأ الشاعر النابغة كامل افندي فاثار الوطنية في الصدور بمنظوماته الحماسية ولا سيما لانه كان يقرّع بالحكومة . وعند ذلك استيقظ السلطان عبد العزيز من غفلته مذعوراً وبدل ان يتدارك المملكة بالاصلاح اعتمد على وزيره محمد نديم باشا وشاركهما بالرأي اغناتيف سفير روسيا فاتفقوا على اعلان افلاس تركيا بدل ان يتفقوا على اصلاح ماليتها وتقويم حال البلاد كلها. وكان ذلك علة عداء الاوروبيين الشديد لتركيا لان الذين

لهم اموال لا يقبلون مزاحاً بالمسائل المالية٠ وعليه انتهزت روسيا في خلال هذه الازمة فرصة تغيظ الصليب الاوروبي من الهلال التركي واثارت الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٦ التي كانت ويلاً على تركيا

وزد على ذلك ان مسألة الخلافة انشأت عقدة سياسية اخرى افضت الى خلاف انكلترا وروسيا فان هذه رغبت ان تكون الخلافة للبرنس عز الدين ابن السلطان عبد العزيز لانها كانت تعتقد انه يميل لها وانكلترا كانت تؤيد الامير مراد لانه صاحب الحق والامة تحبه لتعقله وحسن آدابه ومعرفته

وكان مدحت باشا ابو الاحرار من أعظم انصار مراد فلما ساءت كل حال في المملكة استمال اليه محمود نديم باشا الصدر الاعظم ٠ واستوثق منه ان لا يحرك ساكناً ضده ولا يقضي اوطار روسيا ٠ وعند ذلك أثار السفطاء أسيى العلماء وقراء القرآن والمشائخ وعددهم يبلغ نحو ٤٠ الفاً فاضطر السلطان ان يرضيهم بعزل نديم باشا الصدر الاعظم وعزل شيخ الاسلام وتعيين مدحت باشا وزيراً ٠ واستوز محمد رشدي باشا صدراً أعظم

ولما ثار اهل الفلاخ والبغدان ولّي حسين عوني باشاقيادة الجيش فقمع الثورة ٠ ولما تعرف مدحت باشا بعوني باشا هذا واطلع على مبادئه وجده خير نصير له على الاصلاح فاتفقا على تنظيم لائحة اصلاحية تقضي : ١ً — بمساواة العثمانيين بقطع النظر عن مللهم ٢ً — بانشاء مجلس المبعوثان للسيطرة على مالية البلاد واصلاحها ٣ً — بمحاكمة الوزراء في محكمة خاصة اذا اذنبوا أي جعلهم مسأولين خلافاً لما كانوا عليه ٤ً — باطلاق حرية المطبوعات ٠ لان عبد العزيز لما شعر بهياج الشعب ادرك ان حرية المطبوعات كانت السبب فخنقها

ولما قرّروا هذه اللائحة اتفق مدحت باشا مع السفطاء ان يقوموا بثورة عامة ويخلعوا السلطان اذا ابى اجابة هذه المطالب ويولوا مراداً مكانه ٠ وكان

عوني باشا في الوقت نفسه قد أعدّ القوة العسكرية لانفاذ مشروع الخلع وشيخ الاسلام الجديد خيرالله افندي اصدر فتوى بالخلع مدارها اخلال السلطان بواجباته

وفي ليلة ٢٠ ايار (مايو) سنة ١٨٧٦ قاد عوني باشا الجنود الى القصر السلطاني وأمرهم بالاحاطة به وهم لا يعلمون ماذا يكون · ثم ذهب عوني باشا الى قصر الامير مراد واوقظه وابلغه انه سيخلف عمه فذعر الامير ظاناً ان ذلك مكيدة له ولكن عوني باشا طمأنه

وكان رديف باشا مستشار الحربية قد عُهد اليه ان يدخل على السلطان عبد العزيز ويبلغه الفتوى و بغية الامة بخلعه فدخل القصر بالرغم من مقاومة الحرّاس · وقد أحس السلطان عبد العزيز بضوضاء في قصره فنهض مذعوراً واذا برديف باشا واقف فوق رأسه فصرخ به ان يخرج من غرفته · فقال له رديف باشا ,, قم وانظر جنودك المحيطين بقصرك يريدون ان ينفذوا بغية الامة بخلعك‘‘ · فاسقط عبد العزيز بيده وادرك الدسيسة وجعل يتغضب على مراد

وعند ذلك كان عوني قد وصل مع الامير مراد الى دار السرعسكرية حيث كان جميع اعضاء الديوان ينتظرونهما وكان جمهور من الاحرار من كبار الدولة والعلماء وغيرهم فنادوا بالامير مراد خليفةً · وفي اليوم العالي قرأ السلطان الجديد منشوره واعداً فيه بالاصلاح وهو منشور لم يسبق له مثيل لما فيه من روح الديموقراطية · اما عبد العزيز فيئس من أمره وانتحر بنفسه بعدئذٍ · وأهم ما يذكر من أعماله في عهده انشاء البنك العثماني عام ١٨٦٢ ومعاهدة لندن عام ١٨٧١ التي كانت ضربة جائرة على الدولة · وبلغ دين الدولة لعهده نحو ٢٠٠ مليون ليرة عثمانية

وكان مراد طيب القلب حسن النية ميالاً الى المدنية الجديدة · ولكنه على ما يظهر كان ضعيف القلب والارادة فكان الصولجان ثقيلاً بيده فلم

يطق حمله اكثر من ثلاثة أشهر فخُلع بفتوى انه مجنون وتولى جلالة السلطان عبد الحميد الحالي بدله في آخر آب سنة ١٨٧٦ وكان مدحت باشا نفسه نصيراً له لانه رأى ان السلطان مراد لا يقوى على القيام باعباء الحكم ولا سيما لانه عصبي المزاج جدًا وقد أثرت عليه الحوادث ولا سيما انتحار عبد العزيز فمرض وكان مضطرباً كل الوقت . وقد أمّل مدحت باشا ان جلالة السلطان عبد الحميد ينفذ الاصلاحات المطلوبة

٣ — مدحت ومجلس المبعوثان

وقبل ان يتبوأ جلالة السلطان عبد الحميد العرش كان قد وعد مدحت باشا أن ينفذ الاصلاح . وقد وقّع على القانون الاساسي الذي كان مهيئاً على نية ان يعلنه على أثر مبايعته . وبعد ستة اسابيع أُعلن رسمياً بان جلالته سينشر لائحة الاصلاح الجديدة التي كان الشعب يتوقعها لان روح الاصلاح كانت قد عمّت الامة في ذلك الحين

ولكنه ما لبث ان ابلغ مدحت باشا ان الاصلاحات التي قدمها اليه بطريقة غير رسمية لا توافق احوال المملكة وان لا بد من تنقيحها ففهم مدحت باشا ان جلالته يبتغي التملّص من القانون الاساسي . ولكنه بقي مؤملاً ان ينفذ تلك الاصلاحات عن يد مجلس المبعوثان الذي لم يرَ جلالته بدًّا من دعوته

وعلى أثر ذلك تعين مدحت باشا صدرًا أعظم فأعلن القانون الاساسي باحتفال عظيم في كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٧٧ وتلا حينئذ جلالة السلطان منشوره الاصلاحي مبيناً الداعي لانشاء مجلس المبعوثان (الذي سيكون موضوعنا في النبذة الثانية)

على ان جلالة السلطان لم يكن راضياً بالقانون الاساسي ومجلس المبعوثان

قلبياً وانما تظاهر بذلك لكي يسترضي حزب الاصلاح ريثما يجد الوسائل الكافلة باستعادة الحكم المطلق ومن ثم رأى ان يقطع الحية من رأسها وذلك بان يبعد مدحت باشا لانه هو محور حركة الاصلاح فعزله من الصدارة العظمى ونفاه الى اوروبا . وهناك كتب في مجلة القرن التاسع عشر بعض مقالات مهمة عن تركيا

وما لبث ان استدعاه جلالة السلطان لانه حسب حساباً له وهو في اوروبا وولاَّه ولاية كريت في تشرين الاول (اكتوبر) وبعد شهرين ولاه على ولاية سوريا وهناك اتُّهم انه سيعصى ويستقل بالولاية فأُرسل والياً الى ازمير . ثم استدعي الى المحاكمة في الاستانة بتهمة انه قاتل عبد العزيز . ولكنه علم بالدسيسة فلجأ الى قنصلية فرنسا فوردت رسالة من الاستانة مؤمنة على حياته فسلَّم نفسه وأُخذ الى الاستانة وحوكم وشُهد عليه زوراً انه قاتل وحُكم عليه بالاعدام ولكن مجلس الوزراء ابي ان يصادق على الحكم وسفراء الدول اعترضوا عليه فابدل النفي بحكم الاعدام ونفي مدحت باشا الى قلعة الطائف وبقي في منفاه ٣ سنوات ثم قُتل ويقال ان راسه أُرسل الى الاستانة

اما مجلس المبعوثان فانعقد وكان يتباحث بأهم المسائل في ذلك الحين وكان في بحر انعقاده حرب هائلة للدولة مع روسيا . وقد حدث خلاف شديد بين اعضائه ورجال الحكومة لان الاعضاء كانوا يتباحثون بكل حرية وبحسب ما يخولهم القانون فعزّ ذلك على كبراء الحكومة الذين كاد المجلس يكف يدهم عن الاستبداد حتى لما اشتد الخلاف أمر السلطان بحل المجلس وبقي ملغىً حتى تموز الماضي كما علم القراء الكرام

وفي الجزء التالي تفصيل الحكم لعهد جلالة السلطان عبد الحميد الثاني الحالي

نقولا الحداد

عجائب اللاسلكية

بالون يسير بالكهربائية بلا سلك — يهتم المستر ارثور سارجن في ,, نيوروشل '' (ضواحي نيو يورك) باختراع بالون يسير بقوة الكهرباء بلا سلك على مسافات مختلفة . ويقول انه واثق من النجاح . وفي طاقة اختراعه ان يسير البالون الى أي جهة أرادها قبطانه وان يرفعه أو يخفضه كما يشاء . وستكون مزية هذا البالون انه خفيف جدًّا بحيث يتسنى له نقل الاحمال الثقيلة

تلفون لاسلكي بين اوروبا واميركا — تهتم احدى الشركات الآن بانشاء تلفون لاسلكي بين برج ايفل في باريس وقمة احد الفنادق العالية في نيو يورك . ويقال انه لا بد من استخدام الراديوم لهذا التلفون الذي يرجع الصدى فوق الاتلانتيك

تقارير طقسية باللاسلكي — امكن الدكتور بولي مدير المرصد الجوي في اكس لاشابل ان يعمل تقارير عن الطقس غريبة بواسطة رسائل لاسلكية كان يأخذها من الباخرة ,, اوغستا فكتوريا '' الخاصة خط ,, همبورغ اميركان '' قال : ,, نجحت في أخذ تقارير عن الطقس بالتلغراف اللاسلكي عن بعد ٨٠٠ ميل من شاطئ اميركا وعن بعد ١٢٠٠ ميل من شاطئ اوروبا وبمساعدة الرسائل اللاسلكية من البواخر استطعت ان ارسم خرائط طقسية على مسافة ٨٠٠ ميل

بالون بين نيو يورك و بوسطن — تؤلف شركة لانشاء بالون تجاري لنقل البضائع والركاب بين نيو يورك و بوسطن

الوكيل العمومي في القطر المصري

نرجو جميع مشتركينا الكرام في القطر المصري ان يعتمدوا وكيل الجامعة العام في القطر حضرة الاديب الفاضل الماجد محمد افندي شمس الدين الصحن بالميدان في الاسكندرية